# الفصل السادس

## التأثير العبرانى اليهودى فى التراث الإسلامى وثقافة الشرق الأوسط

obeikan.com

الفصل السادس

# التأثير العبرانى اليهودى فى التراث الإسلامى وثقافة الشرق الأوسط

## ( أ )

■ **اليهود يعيدون صياغة ما اقتبسوه.**

نؤكّد من جديد ـ أن كثيرين من التراثيين والسلفيين، يلحّون على بتر التاريخ العربى الإسلامى عن التيّار الثقافى للمنطقة السامية ( حوض المتوسط الشرقى ـ منطقة الشرق الأدنى ) وذلك لأن هؤلاء السلفيين تزعجهم بدهية « التيار المتدفق لتاريخ الثقافة الإنسانية » حيث يتصادم هذا الاتجاه التراكمى التطورى للثقافة الإنسانية مع فكرة الانبثاق بالوحى والاتصال بالسماء.. يلحّ هؤلاء ـ كما سبق أن أشرنا ـ على قدم اللغة العربية، وأنها لغة الله، ولغة أهل الجنّة.. وهؤلاء يتناسون ـ عن عمد ـ أن أسماء الملائكة التى وردت فى القرآن وكتب التراث أسماء عبرانية يهودية: « جبرائيل » ملاك الربّ وناقل كلمته، فى العهد القديم والجديد، هو نفسه « جبريل » القرآن، كذلك فإن « ميكال » و « إسرافيل » و « عزرائيل » و « عزازيل » وغيرهم أسماء عبرانية يهودية للملائكة حاشية الله فى الفكر العبرانى، وهذه الأسماء، وغيرها موجودة فى التراث الإسلامى اللاحق. ( الآية ٩٨ من سورة البقرة تقول: ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ** ﴾... ويشيع فى الفكر الإسلامى الصوفى أسماء ملائكة آخرين منقولة عن العبرية مثل « صمصمائيل » و « أرخيائيل » ... وهناك صلة ما بين المتصوفة المسلمين و« الكابالا » متصوفة اليهود.

لقد صور المصريون «رع» و «آمون» فى صورة قرص الشمس المجنّح، وفى صور أخرى مجنحّة، عثر عليها الأثرى «فِلِنْدِزْ بِيتَرِى» فى اكتشافه لمراكب الشمس الفرعونية: تصوّر الفراعنة الشمس تموت فى قوس المساء، وتركب مركبة السماء المجنحة «مَسْكَتِتْ» تدور بها فى الجانب المظلم من الكهف، ثم تركب مركبة النهار المجنحة «رَعْ نجَتْ»، والشمس فى أول النهار تكون طفلة مجنحة واسمها «نِفَرْتَمْ» وتكون فى واضحة النهار شابا واسمها «رع»، وهى شيخٌ فى المغيب واسمها «أتُومْ».. إن هذه الصور المجنحة للكائنات الإلهية انتقلت من الفرعونية إلى اليهودية العبرانية، وبدأنا نراها فى الأيقونات اليهودية والمسيحية.. كذلك ورد فى أول سورة فاطر فى القرآن: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِى أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾.

☆☆☆☆☆

## (ب)

### لماذا ينسب العبرانيون تراثهم إلى السماء؟

لكى يدعم اليهود أبنيتهم العلوية، التى لا تستند لأية أبنية تحتيّة، لجئوا إلى السماء، وإلى جبريل ملاك الرب وناقل كلمته، حتى يعطوا إيديولوجيتهم مشروعيتها وقدسيتها، ولعل من أوائل نصوص البُنى العلوية والإيديولوجية اليهودية المعروفة لنا، والباقية حتى الآن، الكتابات المنسوبة إلى موسى. وتقولُ المتون العبرانية، أن الله لم يكتفِ بأن كلّم موسى بنفسه، بل إنه أعطى موسى الألواح، ألواح التشريع، يدا بيدا.

إن اليهود لا يذكرون أن موسى تعنى وليد أو ابن فى اللغة المصرية (تحوت مس أىْ ابن «تحوت» ربّ الحكمة المصرى)، كذلك ينكرون أن موسى هو «أوزيرموس» (ابن أوزير أو أوزيريس النبى المصرى القديم المعروف فى القرآن باسم إدريس)، وهكذا يبتعد اليهود عن شبهة التأثر بالمعبد الفرعونى الذى نشأ فيه موسى.

☆☆☆☆☆

# (جـ)

## اليهود ونظام التوريث الرعوى

العبرانيون واليهود، وكذلك العرب، قبائل من الرّعاة، تمتلك كل أسرة منها الغنم والإبل والعبيد وغير ذلك «ملكية رقبة»، لهذا فإن نظام التوريث العبرانى الرعوى الذى ابتدعه أنبياء السامية مناسب اقتصاديا للحياة الرعوية، فلو مات الأب وكان لديه قطيع من الشياه، وُوزِّعَ هذا القطيع على أبناء كثيرين، للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كلّ واحد من الوارثين سوف يكون نصيبه من إناث الشياه وذكورها كافيا ـ مهما قلّ العدد ـ لنمو قطيع جديد، أى أن نظام التوريث العبرانى مناسب تماما لحياة الرّعة، ولا يُضرّ بفكرة «الانتاجية».

إن هذا النظام فى التوريث لم تعرفه الحضارات الزراعية، حيث إنّ النظام الإقطاعى العبودى قد فَرَض ملكيّة الدولة لكل الأرض الزراعية، والدولة متمثلة فى الحاكم أو الملك الإقطاعى، وإن سُمِحَ بملكيّة للأمراء، فإنها تكون عادة «ملكية ريع» لا «ملكية رقبة»، حيث تظل الملكية العامة للدولة متمثلة فى الحاكم الملك.. وفى المجتمع الزراعى يؤدى التوريث بالتفتيت إلى صِغَر الحيازات الزراعية، وهذا يؤدى إلى ضَعْف الإنتاج والإنتاجية.. ومن الواضح أن نظام التوريث فى المتون والشرائع الساميّة اللاحقة ليس إلا امتداداً لنظام التوريث العبرانى بصرف النظر عن كونه يناسب أو لا يناسب المجتمعات التى نُقِل إليها.

☆☆☆☆☆

## (د)

## اليهود وقتل السارق أو قطع يده

لو تابعنا الجهد العلمى التاريخى للدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم[1]، فإننا نكتشف تشابها فى عقوبات السرقة فى الهلال الخصيب ومصر، أى فى دول الحضارات الزراعية، فالسارق إذا كان حُرّا يُسجن أو يُغَرّم أو يسخّر فى العمل، أما إذا كان عبدا فقد تجدع أنفُه أو تصلم أذنُه.. ويتضح من فلسفة هذه التشريعات أنها تحافظ على السارق من أجل السخرة، أو دفع الغرامة، وذلك لحاجة العمل الزراعى الكثيف إلى يد السارق.

ولكنْ؛ لما كانت الجماعات العبرانية اليهودية جماعات رعوية، فالمال دائما فى غير حِرْز نظرا لظروف الانتقال الدائم وعدم الاستقرار، كذلك من الصعب الحكم بسجن أى إنسان، أو متابعته وتسخيره فى العمل للأمير أو الملك، بل إن العملَ نَفْسَه فى المجتمع الرعوى قليل.. لهذا كان لابد من تشريع «انتقامى» عنيف ضد السرقة، فبعض القبائل العبرانية حكمت بقتل السارق، مثلما كان المهاجرون الأمريكيون يقتلون «سارق الحصان» (لأهمية الحصان فى ذلك الوقت)، وكذلك كان الانجليزُ يقتلون السارق حرصا على مال الأمير الإقطاعى، الأمر الذى ندّد به «توماس مور» فى «اليوتوبيا» حتى

(١) مصر واشرق الأدنى القديم - دكتور نجيب ميخائيل ابراهيم. ستة أجزاء.

أسْقِطَتْ عقوبة قتل السارق فى انجلترا[٢]. واستقر التشريع اليهودى على قطع يد السارق وبدهىٌّ أن قطع يد السارق الراعى لن يعوق عمله كثيرا، فإنه سينقل عصا الرعْى من اليد التى بُترت إلى اليد الأخرى.. والمسيحية ـ فى التشريع ـ تلتزم العهد القديم، وقد صرّح المسيح بذلك[٣]، وكذلك فإن التشريع الإسلامى القرانى يقطع يد السارق.

☆☆☆☆☆

(٢) أرض الأحلام - زكى نجيب محمود.

(٣) قال المسيح: «ماجئت لأدّل الناموس».

## (هـ)

## اليهود والحقد على مصر والمصريين

كانت مصر فى الزمن القديم مطمعا، يغير عليها أو يتسلل إليها الرّعاة العبرانيون ثم اليهود بعد ذلك، ولهذا تحركت الوطنية المصرية مرات كثيرة للتصدى للقبائل السامية من هكسوس عبرانيين ويهود.. وأثّر ذلك فى الأدبيات الدينية اليهودية: فالتوراة أفردت سفرها الثانى للحديث عن «الخروج» من مصر.. ومن البدهى أن تُضْطَهَد مصر والمصريون فى الكتابات اليهودية.. فعلى سبيل المثال نجد فى سفر عاموس قوله: «جميع ينابيع يهوذا تفيض ماءً، ومن بيت الرب يخرج ينبوع يسقى وادى السنط ومصر تصير خرابا» و«يضرب موسى النهر بعصاه فيتحول الماء دماً» «الإصحاح الثامن خروج» (النهر طبعا هو نهر النيل الذى يثير حقد اليهود)، «يأمر موسى وهارون فإذا الضفادع تملأ أرض مصر وبيوت جميع الشعب» «الثامن خروج» ثم كان الجراد.. ثم كان الظلام للمصريين.. ثم كان قتل الربّ لجميع أبكار المصريين فى عيد الفصح ولم يضرب الرب بيوت العبريين (المقيمين فى مصر) لأنهم وضعوا العلامة السرية، وهى دم الذبيحة على القائمين والعتبة العليا لكل بيت عبرى» (الثامن والتاسع خروج)..

والحقد على مصر والمصريّين يطفح به مَتن العهد القديم، حيث يصف المصريين، فيقول إن «مَنِيّهُمْ كمنىّ الحمير» .... ومن يقرأ سفر حزقيال يشعر بحقده المرير على المصريين وعلى مصر، حيث يدعو «بالبركة لنبوخذ

نصر القائد البابلى » كى ينصره ربّ إسرائيل على المصريين لأنه عمل من أجل رب إسرائيل » ( بالرغم من أن نبوخذ نصر قتل أبناء ملك إسرائيل، كما سمل عينى الملك ) . . كذلك يكره حزقيال : « كبرياء عز المصريين » ويحلم بتحطيم كبرياء المصريين وتدمير مصر « الله يجعل سيفه فى يد نبوخذ نصر فيسلبون كبرياء مصر » ( آية ١١ إصحاح ٣٢ حزقيال ) ويصعّد حزقيال حقده فنجده فى الآية ٢٥ من الإصحاح ١٦ من سفره يحمل على أورشليم لصلتها بمصر، بعبارات قاسية حيث يقول لأورشليم : « فَرَجْتِ رجليكِ لكل عابر واكثْرتِ زناكِ، وزنيْتِ مع جيرانك بنى مصر غلاظ اللحم » .

إن هذا الحقد وتلك الكراهية لمصر والمصريين، فى الأدبيات الدينية اليهودية، أمرٌ مفهوم وله مسوّغاته ولكنّ هذا الحقد وتلك الكراهية يستمران فى المتون السامية اللاحقة : فالفكر المسيحى يحذّر من الاتكاء على القصبة المرضوضة التى هى مصر . . ودارسون غربيون كثيرون يتحدثون عن أن هذه الكراهية اليهودية لمصر مستمرة فى القرآن، فى حملته على مصر وفرعون، بالرغم من أنّ تصدى فرعون لليهود كان أمرا وطنيا، وبالرغم من أن إيمان المصريين بالخلود والعالم الآخر، كان يفوق إيمان اليهود . . . بل إن « إدواردلين » فى حديثه عن عادات المصريين فى زمنه ( منذ حوالى ١٧٠ عاما ) لاحظ التناقض بين الوطنية المصرية، والاعتقاد الإسلامى فى مثل قول المصريين : « الذى كنا نحسبه موسى وجدناه فرعون » . . . إذن فالروح اليهودية المعادية لمصر، سادت المتون الساميّة كلها، بل تسرّبت إلى التراث الشعبى، مما يقطع بتأثير التراث اليهودى فى تراث وثقافة العرب والمسلمين .

☆☆☆☆☆

## (و)

## اليهود واستمرار رموزهم الدينية

إن التضحية للآلهة، والنذر لها، وحب الآلهة لرائحة الدماء والأضاحى التى تُحرق على المذابح، أمر سائد لدى اليهود، وهو دليل على تواصل الفكر الدينى بين الحضارات القديمة والأدبيات الدينية اليهودية. إن قصة الفداء (ابراهيم وإسماعيل، أو ابراهيم وأسحق) فى المتون والشروح اليهودية، نراها مكررة فى المتون الإسلامية.. وتتقارب هذه القصة مع قصة «الفداء» فى «مسخ الكائنات» لأوڤيد[1] يقول الراوى فى «مسخ الكائنات»: «غير أن ابن ثيستور (أجا ممنون) لم يَرَ هذا الرأى، وقضى بضرورة استباحة دم عذراء ليسكنَ غضب الإلهة العذراء» «ديانا»، واختفى حنان أجاممنون، وترك ابنته تقف أمام المذبح، يحيط بها الكهنة وهم يبكون لسفك دمها تضحية وقرباناً للإلهة الغَضْبى «ديانا»... وسعدت الآلهة بما كان، فنشرت سحابة غشّت عيون الجمع المحتشد، وإذا بظبية تتخذ مكان الفتاة الموكينية، وسكن غضب «ديانا» بهذه الضحيّة التى رضيتها....».

ويُلاحَظُ أن دخول المعبد وخيمة الاجتماع، كدخول المسجد، لابد وأن يسبقه وضوء أى تطهّر بالماء. «وضع موسى الميضة بين خيمة الاجتماع والمذبح، وجعل فيها ماءً للاغتسال ليغسل منها موسى وهاون وبنوه أيديهم

(١) مسخ الكائنات ـ أوڤيد - ترجمة الدكتور ثروت عكاشة.

وأرجلهم عند دخولهم خيمة الاجتماع، وعند اقترابهم من المذبح، يغسلون كما أمر الربّ موسى» (٣٠ - ٣٢ - ص الرابع - خروج).

وإن القارئ للإصحاح السادس من سفر دانيال، يجد حركاتٍ وطُقوساً فى الصلوات اليهودية مشابهة للمسيحية والإسلامية، بل ولليهود قبلة إلى أورشليم.. وتُفتح كُوى فى المعابد اليهودية فى حائط القبلة تجاه أورشليم، وهناك كوى فى بعض حوائط قبلات المسلمين تؤكد على التواصل بين العبادات السامية، كما تؤكد على التأثيرات اليهودية فى ثقافة الشرق الأدنى. تجعل الأدبيات الدينية السامية سواء فى الإسلام أو المسيحية المرأة فى مكانة دون مكانة الرجل، وهذا الأمر إن كان يدل على مركز المرأة فى الشرق، فهو يدل كذلك على التأثير اليهودى، فمن الواضح أن المتون والشرائع اليهودية تميل إلى التقليل من مركز المرأة ولا نبالغ إن قلنا إنها تضطهد المرأة، حتى وهى لا تزال فى المهد: «إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً، تكون نجسة سبعة أيام وفى اليوم الثامن يُخْتَن.. ثم تقيم ثلاثا وثلاثين يوما فى دم تطهيرها.. وإن ولدت بنتاً تكون نجسة أسبوعين.. ثم تقيم ستة وستين يوما فى دم تطهيرها (٢-٥ إصحاح ١٢ سفر (اللاويين).

فى «إرميا» نجد حلما لزكريا، وزيارة بالحلم لما يشبه المطهر والجحيم.. كذلك فإن رؤيا يوحنا اللاهوتى، زيارة بالحلم أو بالروح للجنة والنار.. وفى قصة الإسراء والمعراج فى المتون والشروح الإسلامية، ما يؤكد هذا التواصل والتأثير فى أديان السامية.. بل إن بعض الشروح الإسلامية للإسراء والمعراج، يُقال عنها فى الأدبيات الدينية الإسلامية إنها «من الإسرائيليات».

إذا كانت الثقافة العبرانية قد أثرت فى المنطقة السامية والشرق الأدنى،

فإن اليهود يعترفون ـ بمضض ـ بتأثرهم بالتراث المصرى القديم.. ويشهد «العهد القديم» بالتأثير الفرعونى فيقول: «فتهذب موسى بكلّ حكمة المصريين فكان مقتدراً فى الأقوال والأفعال» (٢٢ ص ٧ أعمال الرسل).

إن إصرار اليهود على اتصال أنبيائهم بالله، استمرّ فى المسيحية والإسلام الذى بدأ فى مجتمع رعوى، كالمجتمع العبرانى.. ثم انتشرت أديان السامية الثلاثة فى العالم المعمور ... إن الأدبيات الدينية الأوربية والأمريكية، إذا تحدثتْ عن المتون السامية، فإنها تسميها بالعهد القديم والعهد الجديد والعهد الأخير، ويقصدون بذلك التوراة والإنجيل والقرآن.

ظلّت اللغة المصرية، بطرق كتابتها المختلفة (هيروغليفية تصويرية. وهيراطيقية لاهوتية، وديموطيقية شعبية، وقبطية «وهى نفسها الديموطيقية بحروف يونانية مع بقاء عدد من الحروف المصرية الحلقية) ظلّتْ كأنها طلاسم، ما كُتِب فى أوراق البردى، وما حفر على التوابيت واللوحات والحوائط الداخلية للأهرامات والمعابد، والمعروفة بين الآثاريين بمتون الأهرام ومتون التوابيت... حتى ظهر «جانْ فِرانْسُوَا شامبليون» وأكتُشِف حجر رشيد.. واستطاع شامبليون، مقارنا بين العبارات المكتوبة بطرق مختلفة، آخرها القبطية، أن يفكّ طلاسم اللغة المصرّية أيّا كان الرسم أو الطريقة التى كُتبتْ بها.

وعكف مؤرخون عظام كجيمس هنرى برستد، وهو أيضا آثارى عظيم، كما استطاع تلاميذه مثل جون ويلسون وسليم حسن وكثيرين آخرين، منهم أستاذى العظيم الأب أبيب النقادى (توفى سنة ١٩٥٩ عن ستة وتسعين عاما[١])، أن يحسّنوا قراءتهم للغة المصرية بخطوطها المختلفة..

واكتشف هؤلاء جميعا، أن الأديان الساميّة أخذت الكثير من الفكر المصرى، سواء الشرائع والقوانين، أو الحكم والأمثال، أو الأساطير المتعلقة بخلْق العالم، وانبثاق الآلهة، بل رأى الراهب الأب أبيب، من خلال مراجعاته للمتون المصرية والمتون السامية، أن «نشيد الانشاد» يكاد يكون ترجمة عن شبيه له مصرى، وكذلك سفر «الأمثال» و«المزامير».

ويؤيد جيمس هنرى برستد رأى الأب أبيب، بل إنه فى كتابه «فجر الضمير»(٢) يعقد موازنات بين أقوال أنبياء مصر وأنبياء السامية، ليصل فى النهاية إلى أن «فجر الضمير» الإنسانى والأخلاقى صيغ هنا فى مصر، منذ عصر إيزيس وأوزيريس الناسوتيين (حينما كانا ملكاً وملكة قبل أن يتحوّلا إلى صورة أخلاقية رمزية، بإضافة ستْ ممثلا للشر والعدوان، وكذا بقية إخوة أوزيريس وست...)... ولعل إيزيس وأوزيريس كانا فى أواخر العصر الحجرى الحديث، حيث بدأ ظهور «الإبونايم Eponime» الذين قادوا جماعاتهم وضمّوا إليها جماعات مشابهة ليحققوا وحدة مصر، ويظهروا هم فى صورة «النّبو»(٣) المشرّع للجماعة.

فى أحد أيام الخميس فى صيف سنة ١٩٥٨، وفى ندوة «الأب أبيب التى كان يحضرها كثيرون من أعلام الفكر والمثقفين وهيئات القضاء (رأيت

(١) الأب أبيب النقادى راهب أرثوزكسى من أمّ يونانية، عمل فى كنائس الحبشة، وقبلها فى كنائس الصعيد ثم فى البوسنة وكان متقنا للغات القديمة، فضلا عن الانجليزية والفرنسية والأمهرية وكان الآثاريون الذين يزورون مصر يعرفونه ويستعينون به.. وفى نهاية عمره المديد عاش فى الريدانية (بجوار المنصورة) فى كنيستها القديمة، وكانت له ندوة أسبوعية فى المنصورة.

(٢) «فجر الضمير» ترجمة سليم حسن وهو آثارى عمل مع جيمس هنرى وآخرين، وله مسلسل ضخم (بضعة وعشرون مجلدا) عن الحضارة الصمرية.

(٣) «نبو» كلمة مصرية قديمة تعنى المشرّع وواضع القوانين والحكيم، أى أنها أصل «نبىّ».

فى ندوته وأنا صبىّ فى أوائل الخمسينات الشاعريْن الكبرين: على محمود طه. والدكتور إبراهيم ناجى) .. فى ندوته، قرأ الأب أبيب قصة مترجمة عن المصريّة القديمة بعنوان: الأخَوَان والزوجة.. وأذكر ـ إلى الآن ـ اسم الأخ الأصغر «باتا» «كان باتا يعيش فى كنف أخيه الأكبر، يذهبان إلى الحقل صباحا، ويعودان منه ساعة الغروب، وكانت زوجة الأخ الأكبر تحضر لهما الطعام بعد الظهر... ولما كان الأخ الأكبر يزرع قمحا، ولم يقدّر كمية البذور التى يحتاج إليها تقديرا صحيحا، احتاج الأخوان إلى كميّة من القمح، فركب الأصغر حماره وذهب إلى البيت ليحضر مزيداً من القمح، ورأته زوجة أخيه الأكبر وهو قادم من بعيد، وكانت جميلة، وكانت تعشق «باتا» الأخ الأصغر، دون علمه، لهذا تعرّتْ من ثيابها.. فلما دخل باتا اتجه إلى مخزن القمح، فقامت إليه، تعرض نفسها عليه، فبكى، وحاول الهروب فجذبته من قميصه فقطعتْه من الخلف، فارتمت عليه فهرب منها ومن بيت أخيه.. ولمّا سأل أخوه عنه امرأته، قالت له: حاول الاعتداء علىّ والتودد إلىّ.. فشك الأخ الأكبر وأرسل من استدعى شقيقه من قرية صديقه، فحضر معه الصديق، وحكم بأنه إذا كان قميصه قُدّ من دُبُرٍ فهو صادق وهى كاذبة، وإن كان قُدَّ من قُبُل فهو كاذب. وهى صادقة.. وتبيّن أن القميص قُدّ من دُبُر، ففارق الأخ الأكبر زوجته وأعاد أخاه إلى بيته».

وعلّق الأب أبيب على الحكاية وقال: إنها تكاد تكون قد نُقلَت للعهد القديم، كذلك قال: إن هناك عدّة صور مختلفة للحكاية باختلاف الرواة، فكل راوٍ وكلّ قاص يحوّر فى الحكاية بطريقته الخاصة.

☆☆☆☆☆